ما وراء أسوار *فردقان*: جدل الوثيقة والمتخيل في سردية يوسف زيدان عن (ابن سينا)

روژان أنور مدحت

قسم اللغة العربية، كلية اللغات، جامعة السليمانية، السليمانية، اقليم كوردستان، العراق

المستخلص - الرواية التأريخية والخيال :

تُعدّ الرواية التأريخية من أهم أنواع الأدب، حيث تجمع ما بين الحقائق التأريخية والخيال الأدبي. من هذا المنظور يمكننا أن نبين الروابط بين التأريخ والخيال بحيث يمكن للروائي الذي يكتب رواية تأريخية أن يّسلط الضوء على أحداث أو شخصيات أو وقائع تأريخية مهمة بينما تضيف إليها أبعاداً من الإبداع والخيال، فليس المطلوب من الأديب الروائي أن يتجرد من آلية الأدبية والخيال الإبداعي لملء الفجوات التأريخية ولإضفاء طابع أدبي مشوق إلى عمله الأدبي.

من هنا نستنبط أن الرواية التأريخية تخدم هدفين :

الأول: إحياء الأحداث أو الشخصيات التأريخية عبر إعادة سردها بأسلوب إبداعي ما يسهل على القارئ فهم السياقات والأحداث الآيدولوجية والاجتماعية التي أحاطت بتلك الأحداث السياسية .

الثاني: إضفاء أبعاد إنسانية أو بالأحرى حيوية على الشخصيات التأريخية، ما يتيح للمتلقي التفاعل والتجانس والتفاهم مع تلك الشخصيات وفهم الدوافع والعواطف التي كانت توجه أفعالهم وآراءهم .

والخيال يتيح للكاتب تحويل الحقائق الجافة إلى سرد مفعم بالحياة ومشوّق وممتع، فعلى سبيل المثال استطاعت الرواية ـ محل البحث ـ خلق حوارات بين الشخصية المحورية وشخوص ثانوية بعض منها تأريخية حقيقية وأخرى مبتكرة للكشف عن ـ آراء (ابن سينا) ـ الفلسفية والخوض فيها، وكذلك كشف خلجات النفس وصراعاتها الداخلية التي ربما كانت تعاني منها أو تواجهها .

هذا الاستخدام للخيال لا يقصر الفرصة على تقديم التأريخ بل يثري التجربة القرائية ويجعلها أكثر شمولاً وانتشاراً .

إجمالاً تتيح الرواية التأريخية للمتلقي فرصة الغوص في أحداث تأريخية، واستنباط مفاهيم من تجارب شخصيات عاشت أحداثاً معينة ومرّت بظروف معينة. بينما يُعَدّ الخيال أداة فعالة في تحقيق هذا الغرض .

ومن الجدير بالذكر أن الرواية التأريخية ليست مجرد إعادة سرد للأحداث الماضية، بل هي جسر يصل بين العصور القديمة والحاضر، ما يسمح للقارئ بالتأمل في كيفية تغيّر الزمن وتأثيره في المجتمعات. كما أن الخيال يعزز من قدرة الرواية على جذب انتباه القارئ وتحفيزه على التفكير النقدي، ما يسهم في تطوير فهم أعمق للثقافات والتقاليد المختلفة.

فضلاً عن ذلك، يمكن أن تكون الرواية التأريخية وسيلة فعالة لتسليط الضوء على القضايا الاجتماعية والسياسية التي لا تزال ذات صلة باليوم. فهي تمكننا من رؤية الانعكاسات المعاصرة للأحداث التاريخية، ما يساعد في تعزيز الوعي الجماعي بضرورة التعلم من الماضي لبناء مستقبل أفضل.

إذاً، تظل الرواية التأريخية فناً فريداً يجمع بين الحقيقة والخيال، ويقدم للقارئ تجربة غنية وممتعة تجمع بين التثقيف والترفيه، ما يجعلها واحدة من أكثر الأشكال الأدبية جاذبية وتأثيراً في عالم الأدب.

الكلمات الدالة- الرواية التاريخية، الخيال في الرواية، ابن سينا، ابن سينا، فردقان.

المقدمة

تعدّ الرواية التاريخية من أبرز الفنون الأدبية التي تجمع بين الحقائق التاريخية والخيال الإبداعي، مما يساهم في تشكيل وعي القراء بفترات وأحداث تأريخية معينة. يتناول هذا البحث إشكالية العلاقة بين الرواية التاريخية والخيال، حيث يتساءل: إلى أي حد يمكن للخيال أن يؤثر في سرد الأحداث التاريخية، وهل يمكن عدُّ الخيال مجرد أداة لأبراز الحقائق، أم أنه يسهم في خلق فهم أعمق للتاريخ؟

وتكمن أهمية هذا البحث في محاولة تسليط الضوء على كيفية إسهام الرواية التاريخية في إبراز الهوية الثقافية والتاريخية للأمم، إضافة إلى تأثيرها في القراء في تشكيل رؤاهم حول الماضي. وذلك في ظل التحديات التي تواجهها الرواية التاريخية في زمن يعج بالمعلومات والآراء المتناقضة حول الأحداث التاريخية.

وتهدف الدراسة إلى تحليل العلاقة بين العناصر التأريخية والخيالية في الروايات التأريخية، واستكشاف كيفية استفادة الأدباء من (الخيال) لتقديم سرد يقارب التاريخ بأسلوب أدبي يعكس تجارب وحيوات شخصياتهم. كما تسعى إلى دراسة التأثيرات الاجتماعية والنفسية التي يمكن أن تترتب على قراءة مثل هذه الروايات.

وكذلك نحاول في ضوء هذه الدراسة اضهار علاقة الرواية التأريخية بالخيال. من هذا المنطلق نحاول الإجابة على عدة أسئلة منها: هل وظيفة الأدب نقل التأريخ بحذافيره؟ أم هل المؤلف يداه مفتوحتان لملء الفجوات التأريخية عن طريق الخيال؟ وهل الرواية استطاعت أن تقنع المتلقي بما عَرَضَتْه؟ هذه الأسئلة المطروحة حول الرواية التأريخية نرجو من الله أن نكون قد أعطينا المادة حقها وأن نكون على الصواب. ومن الله التوفيق.

مجلة جامعة التنمية البشرية

المجلد 11، العدد 4(2025) ؛ عدد الصفحات (8)؛ معرف الكائن الرقمي: 10.21928/juhd.v11n4y2025.pp41-48

ورقة بحث منتظمة: أُستلم البحث في 4 ايار 2025؛ قُبل في 15 حزيران 2025؛ نُشرت في 24 ايلول 2025؛

البريد الإلكتروني للمؤلف : rozhan.madhat@univsul.edu.iq

حقوق الطبع والنشر ©2025 روزان أنور مدحت. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 4.0

وسيكون البحث محدودًا في إجراء تحليل عميق لرواية الفردقان للكاتب المصري ***يوسف زيدان*** المعروفة، والتركيز على تداخل العناصر التاريخية والخيالية، مع مراعاة الجوانب الثقافية والاجتماعية داخل الرواية لأننا اعتمدنا المنهج السردي الذي يبحث عن دوافع الراوي وأهدافه في الكتابة. من خلال هذه الحدود، يأمل البحث في تقديم فهم شامل يعزز من قيمة الرواية التاريخية كنوع أدبي مُؤثر يمتزج فيه الواقع بالخيال.

الجانب النظري للبحث

أولاً: نبذة عن الرواية:

فردقان ـ شيخ المعتقل ـ

في هذا البحث نحاول أن نعرض ونحلل رواية عربية رصينة بقلم كاتب ومنطقي مصري. **يوسف محمد أحمد زيدان** الذي ولد في سهاج مصر،عام 1958كاتب وأستاذ جامعي مصري، ومتخصص في التراث العربي المخطوط وعلومه.

هذا الكاتب له عدد غير قليل من المؤلفات في الفلسفة والمنطق والأدب، ولأول وهلة، الشيء الذي يجذب المتلقي إلى كتاباته عبارة عن اللغة التي يكتب بها، وأسلوبه في استخدامها في السرد. أما عن الأسلوب فهو أسلوب سَلِس مستساغ فقدم الطروحات الفكرية المعقدة بخط مستطاب سهل، متميز بالسهل المقبول. وأما عن اللغة فالعناية البالغة بها وضعت فجوة في أماكن من الرواية حول الاسترسال في التفنن بها، ما يجعل المتلقي يحس بأنه ابتعد عن الحدث! ولكن سرعان ما يرجع الراوي إلى سكتِه في السرد وإلى أسلوبه المستطاب.

نبدأ بعرض ملخصِ الرواية، بحيث تتحدث عن (مكان) قلعة قديمة وصدئة الأبواب وعلى حافة جبل عارٍ من الأشجار كأنه في صحراء، يأتيه هواء بارد قارس البرودة في ليالي المعتقل. هذا وصف للفردقان اي عنوان الرواية والتي هي عبارة عن معتقل وضع فيها المعتقلون السياسيون وآخرون غير مذكورة أسباب اعتقالهم.

((هذه النواحي الموحشة الجرداء، جداً، ليس فيها على امتداد البصر إلا قلعة ((فردقان)) القابعة هنا منذ قديم الزمان، وقد توالت عليها السنونُ حتى صارت تبدو للمتأمل فيها، مثل عجوز ثكلى تتكوّم في السكون، وتظهر للناظر إليها من بعيدٍ وحيدةً. لا شيء حولها إلا أرضٌ يبابٌ بلا مبانٍ أوأشجار أو اخضرار....)) (زيدان/ 2018، 7)

هنا كأننا أمام حالة نفسية مقمصة عن طريق وصف المكان وهذا النفس تشبه تماماً هذه القلعة التي يقع في القفاري.

أما شيخ الرئيس الذي هو الشخصية الرئيسة في الرواية فهو معتقل في هذه القلعة، وبداية الرواية هي أول يوم له في هذا المكان النائي، وقد أُوصيّ به من جانب الوالي نفسه فيتم استقباله بشكل لائق. وفي هذا المعتقل يقوم شيخ الريس الذي هو ((ابن سينا)) بعدد من المهام وكل أحداث الرواية تجري داخل القلعة مع تقنية فلاش باك أو الاسترجاع لباقي الأحداث الرئيسة التي قد حدثت خارج أسوار هذا المكان.

ونجد عدة طروحات في الرواية منها (طرح لمادة المنطق والطب والفلسفة والأخلاق والدين والسياسة)، وكل طرح فيه جانب من السياسة لأن البطل، كانت له مكانة في الدولة وكان وزيراً أكثر من مرة، وطبيباً معالجاً للوالي مرتين، وبسبب اختصاصه الدقيق في القولنج يقع الاختيار عليه مرات كثيرة ليكون طبيب السياسيين البارزين في الدولة.

وقد أوكله آمر السجن بمهمة فحص جميع المساجين في المعتقل ومعالجتهم حسب الامكانيات الطبية في أرجاء المعتقل، كذلك ألّف الطبيب عدداً من الكتب الطبية وغير الطبية في ذاك المعتقل، وهذه الأحداث منها ما قد أثبتها التأريخ لنا ونقلها الراوي بأسلوب متخيل ومشوِق ومنها ما هي متخيل بحت.

من جانب آخر لم تقتصر هذه الأحداث عن ذكر المرأة والحالة العاطفية، فذكر الراوي عدداً من النساء خارج المعتقل وداخله. كما نجد كثيراً من آراء ((ابن سينا)) الطبية والفلسفية وغيرها وأكثر من ذكر أسماء الأدوية وبعض الأمراض الشائعة والأكلات المشهورة المسببة للقولونج وغيرها.

ثانياً: طرح للرواية التأريخية:

الرواية التأريخية الجديدة لم تعد تنظر إلى التأريخ كوقائع ثابتة غير قابلة للنقاش، والنظرة القدسية إليه سقطت، وقد أصبح من خلال مقاربة الروايات العديدة للوقائع والخطابات تأريخياً متعدد الأوجه والزوايا (ضرغام/ 2010، جريدة الحياة).

وبما أن الرواية تدور حول شخصية تأريخية وبارزة في العالم الفلسفي الإسلامي فالرواية تندرج تحت خانة الرواية التأريخية، مثلها مثل رواية (سمرقند) لـ (أمين معلوف) أو (قلعة دم دم) لـ (عرب شمو) أو(أحمدي خاني) لـ (جان دوست)، فتلك الأنواع من الروايات تعتمد المؤلف فيها مادة تأريخية، ولإعادة كتابة المواد التأريخية يعتمد المؤلف ثلاثة أنواع من المعلومات ***أولاً*** : ما هو موجود في التأريخ وكُتب من جانب الآخرين حول الشخصية وبيئته. ***ثانياً***: المؤرخون أو الاجتماعيون. ***ثالثاً***: الكتب والمحاضرات والمؤلفات المكتوبة من طرف الشخص نفسه ومع وجود كل ذلك وأكثر لكن الراوي يحتاج ـ لتشكيل رواية مسترسلة ومشوقة وحكاية كاملة ـ إلى تفاصيل، إلى أحداث جانبية مشوِقة. وبما أنّ الراوي في هذه الرواية أخذ شخصية فلسفية منطقية فقد اعتمد الخيال لخلق حالات عاطفية مؤثرة ومجذبة للمتلقي. فالعملية عبارة عن الخلق من جديد، ولكي نبين أن السارد قد قام حقاً بخلق الشخصية التأريخية من جديد، نركز على فعل الخلق عن طريق الوصف الدقيق لكل تفاصيل الشخصية مثلاً (الجسدية: ـ الشكل الخارجي ـ العمر، كيفية الحركة، التصرفات، الكلام، كيفية لبس للملابس والعمامة، النفسية: الانفعالات وقت المحادثة ووقت الحديث الجانبي أو المنولوج، والجانب العاطفي، ووصف الحالة الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية).

نقرأ هنا وصفاً لشخصية ثانوية إذْ يقول الراوي: **((شيخ الرستاق رجلٌ طويلٌ، لطيف اللحية وملامح الوجه، أنيقُ المظهر، فاخر العباءة والطيلسان. وعيناه الواسعتان تلمعان ذكاءً. وهو سلم عليه يداً بيد، قال ل (ابن سينا) ... أخيراً التقيت بك، الحمد لله، لكنني أراك شاباً في منتصف العمر، فلماذا يسمونك ((الشيخ الرئيس)) خصوصاً أنك نبغت في شبابك المبكر)) (زيدان/2018، 53)**

في هذا المشهد وصفٌ لشخصية شيخ الرستاق وهو الذي أحضر الأدوية ل(ابن سينا) في المعتقل، وصفٌ للشكل الخارجي بشكل مباشر ومسترسل، كذلك نقرأ وصفاً لعمر (ابن سينا) بصوة غير مباشرة فأوصاف البطل غير مسترسلة تقريباً يكتشفها المتلقي بهوان وتمهل.

ولا ننسى أن الرواية التأريخية يعتمد بشكل أساسي على ثلاثية (**الزمان، المكان، الشخصية**). فيما يخص **الشخصية** قد وضحنا إلى الآن اعتماد الرواية عليه، ومعظم الروايات التأريخية تعتمد شخصية تأريخية حدثاً وعنواناً. و**المكان** أيضاً لديه سمة ممزة في هذا العمل ولاسيما أن عنوان الرواية معتمد على اسم المكان *[**فردقان***]، ففي هذا المكان قد اجتمعت أسباب الأحداث الجارية في الرواية ودوافعها، و**الزمن** الروائي يبدأ بدخول الشخصية البطل إلى هذا المكان النائي. والزمن الخارجي عبارة عن زمن الصراعات السياسية والدينية والصراع على البقاء في الكرسي والسلطة أي (**الجاه والمال والحكم**) وهذا مثالي لخلق السلم الحدثي: البداية والذروة والنهاية. فعدم الاستقرار، أو التواتر بذاته مادة دسمة للخلق والإبداع الفني. واللغة في هذه الرواية قد وحّدت الثلاثية الزمكانية والشخصية والسلم الحدثي.

وبشكل عام حتى وإن بدت لنا الرواية التأريخية خطاباً تخيلياً، فلا تنقطع صلتها بالمرجع انقطاعاً تاماً (القاضي/ 2008، 18) ومن مميزات الرواية أن كل أنواع المعرفة يكون متداخلاً. ومؤلف الرواية التأريخية لا يلتفت إلى التأريخ إلاّ من خلال قضايا حاضره (لوكاش/ 1986، 27) ومهم أن يحس ويشعر المتلقي الآني بالدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بالشخصيات التأريخية إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا في واقعهم التاريخي. (لوكاش/ 1986، 46). إذاً غاية البحث ليست تأريخية بحتة بل فنية أيضاً، فالرصد التاريخي للرواية محدد بفترة محددة والتي هي الفترة التي عاش فيها (ابن سينا)، فهي فترة مليئة بالأحداث السياسية الهابطة والمرتفعة، لذلك هي فترة مفعمة بالأحداث السياسية والاجتماعية والفكرية. وأهم ما تخص به الرواية من جهة البنية الحدثية هو: البنية الحدثية وتركيزها على الوقائع التي صاحبت ظهور نجم (ابن سينا) وسطوعه في سماء الطب والفلسفة والدين والسياسة، إلى هزيمة فلان ابن علان وهبوط نجم (ابن سينا) واعتقاله في فردقان التي هي مركز أحداث الرواية.

ثالثاً: الحالات البارزة التي نجدها في الرواية عن شخصية (ابن سينا):

أ: الطرح الفكري المتعلق ب: (علم المنطق،الطب، الفلسفة):

نعنى بالحالة الفكرية! الحالة الفكرية للشخصية البطل، في الرواية وليس بشكل عام، فالشخصية الرئيسة هي ((ابن سينا))، والفلسفة الدينية والمنطق والطب والسياسة عبارة عن الحالة الفكرية والعلمية العملية للبطل، وبما أننا ندرس المادة دراسة سردية، حاولنا بالقدر المستطاع الابتعاد عن المؤلف ومكانه، والإمساك بالراوي بأنواعه الراوي الخارجي والداخلي والمشارك، ولكننا لا بد أن نشير إلى وجود صلة فكرية بين المؤلف والبطل والفلسفة والمنطق، الدراسة تربط بين الاثنين ولربما كان هذا الجانب ما جعل المؤلف يختار هذه المادة مادةً خاما لروايته، وعلى أية حال فاللغة هي التي تكشف لنا تدّخل المؤلف وعدم نجاح الراوي تقريباً في الابتعاد عن المؤلف.

نلاحظ في رواية (الفردقان) أن الحوارات التي تتسم بطابع المنطقي تميل إلى الاطالة ومطبوعة بطابع المؤلف أكثر من طبع الشخصيات وصبغتها. جدير بالذكر أن الفكر بالأساس في الفلسفة والمنطق عبارة عن نشاط ذهني، واستنباط، أو الخطة أو المنهجية، والاستنباط بذاته منهج متكامل، يتم من خلاله التوصل من المبادئ الكلية إلى نتائج جزئية. توجد تعددية في التفكير منها المستنير والعميق والمتخيل والبديهي والعاطفي، والمنطقي، والرياضي، والنقدي، ولكل نوع فلسفة يدير مقاييسه.

وكمثال على الحوار ذي الطابع المنطقي في الرواية، نجد النقاش الذي يدور بين (المزدوج) والشيخ الرئيس حول أحد مؤلفات الأخير المتعلقة بتنظيم الشؤون العسكرية

((قلت في نفسي: هذا رجلٌ حكيمٌ ومخلص للحق، لكنه لا يعرف قبح هذا العالم.... وكان المزدوج يتحدث بنبرة صادقة، فجاوبه (ابن سينا) صِدقاً بصدق وقال: *عرفت جانباً من قبحه ولكنني جعلت الجمال وجهتي*، وكلامك على كل حالٍ صحيح، فهذا الكتاب جلب لي الويلات.)) (زيدان، 2018، 66).

هنا طرح لفكرٍ سائدٍ منذ أمد: أن ترى الجمال والخير في كل شيء حتى في الأمور القاتمة، فالله جميل ومن تجلى في روحه اسمه لابد أن يجعل الجمال وجهته. هذا منطق (ابن سينا) في تفكيره عن الأمور البشعة، ولكن هذا الحوار يحمل شِقاً سياسياً أيضاً بحيث قد طُلب منه أن يكتب أفكاراً وحلولاً لحالة الجند والعسكر آن ذاك، وقد فعل:

((ثم اتفق تشويش العسكر عليه، وإشفاقهم منه على أنفسهم، فكبَسوا داره وأخذوه إلى الحبس، وأغاروا على أسبابه، وأخذوا ما كان يملكه، وسألوا الأمير قتله فامتنع منه، وعدَل إلى نفيه عن الدولة طلبًا لمرضاتهم. فتوارى في دار الشيخ «أبي سعيد بن دخدوك» أربعين يومًا، فعاود الأمير شمس الدولة القولنج، وطلب الشيخ فحضر مجلسه، فاعتذر إليه الأمير بكل الاعتذار، فاشتغل بمعالجته، وأقام عنده مُكرَمًا مُبَجَّلًا، وأُعيدت الوزارة إليه ثانياً)) ((ابن سينا)/2017، 12).

هذا ما قد جرى وما زال يجري، فالتأريخ والحاضر لا فارق بينهما عندما نأتي إلى السياسة، فصاحب القوة يحكم حتى لو لم يكن على الصواب، وإن قيل له أنت على الخطأ يبدأ بالقتل أولاً وليس بالعدل. ورأينا في زمان ما بعد (ابن سينا) كيف أن السلطة العسكرية في مصر والعراق وبلدان أخرى قد ثاروا على حكامهم وأصبحوا حُكاماً، وديكتاتوراً.

وإلى يومنا هذا، الجند والميليشيات عندما يتسلحون ويرأسهم من هو أقوى من الحكام يثورون ويكسرون قوانين بلدانهم، فالعاطفة تقودهم كثيراً، إلا أن من يتسلح يجب أن يلجم بالقانون.

مشهد آخر حواري عن المنطق الإلهي:

((أتراك تختبرني يا مبدع الكل، أم تُسبر لي أمراً لا أعلمه)) (زيدان/2018، 76)

هذا الحوار دلالة على منطقه في أن بعض الأمور إلالهية والقدرية ولا يمكن للفلسفة استفساره والبحث عن علله، وقد طُرِحَ كثيرٌ من آرائه الدينية، مثلا في المشهد التالي طرح فكرة الخالق والوجود والذي ناقشه (ابن سينا) في كتابه (المبدأ والمعاد)، وتحدث حول تفاصيل الكتاب بهذا الشكل:

((ف (ابن سينا) انتهى من المقالة الأولى فقط وهي ثلث الكتاب، وجعل عنوانها دالاً على محتواها إثبات المبدأ الأول ووحدانيته وصفاته وميّز فيها بين الوجود الممكن والوجود الواجب، وبين واجب الوجود بغيره، وواجب الوجود بذاته. سبحانه مبدع الكل، الخير المحض، التام، العاشق، المعشوق، مدبّر السماء. وكانت المقالة الثانية من الكتاب تدور حول ترتيب الفيض في الكون، من أول وجود إلى آخر موجود ومعنى الإبداع والعلة الأولى. (زيدان/2018، 76)

هذا عرض من دون تعليق، كأن الراوي أراد أن يقوم بعرض منهج الكتاب ربما كان تذكيراً للمتلقي بأهمية فصول الكتاب وجذباً له للرجوع إلى قراءته وأهمية أبوابه

وطروحاته..وحتى لولم يعلق فمجرد العرض يُحرّضُ مُحرِك العقل إلى التفكير بمعاني وجود الممكن والواجب وواجب الوجود بغيره وبذاته ومعاني المصطلحات الصوفية الأخرى في الفلسفة الصوفية كما شرحه (ابن سينا):

((في أن ممكن الوجود بذاته إنما يوجد بأن يجب وجوده بغيره وهذا ينعكس فيكون كل ممكن الوجود بذاته فإنه إن حصل وجوده كان واجب الوجود بغيره، لأنه لا يخلو إمّا أن يصّح له وجود بالفعل وإما أن لا يصح له وجود بالفعل، ومحال أن لا يصح له وجود بالفعل)) (ابن سينا / 1984، 3)

عما لا شك فيه أنّ مشكلة الوجود الفلسفية كانت ولا تزال أهم طروحات الفلسفة البشرية والإسلامية وستظل قائمة لأن الإنسان كائن معقد ومفكر وقد طوّر في تفكيره وإيجاد الحلول والأجوبة لكثير من أسئلته ومعضلاته الفلسفية، ولسؤال الوجود والكون وصل إلى الكواكب الأخرى ولا يزال في طور البحث، ولأجل ذلك صنع آلاف الأقمار الصناعية وأنواعاً من الروبوتات المصنوعة من الذهب والمواد غالية الثمن الموجودة على الأرض ليكتشف سّر الوجود الكوني والمخلوقات غير البشرية على الكواكب الأخرى.

وبات الإنسان يفكر في إيقاف العمر، أو التشيخ سواء بوضعه في كبسولات زمنية لإيقاف الزمن وثبات دورة الحياة على ذاك المخلوق مثلاً كما فعل الله سبحانه بأصحاب الكهف ووضعهم في ثُبات زمني مدة ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً، وكل ذلك لكشف المعنى الحقيقي للوجود، وجود الكون والبشر والخالق.

إذاً، هذه الموضوعات مندمجة مع الطروحات العامة أو الخطوط العامّة لهذه الرواية وجزء لا يتجزأ من الأحداث. فبإمكاننا أن نعدها محاولة فكرية ناجحة ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقضايا الآنية.

ولمّا توجهنا تلقاء موضوع العقل والنقل نجد نموذجاً في الرواية:

((يقول بهمنيار: أرى يا سيدي، قبل الكتابة، أن تكون جلستنا اليوم لبحث رؤاك الفلسفية فيما يتعلق بالمعاد، وما يمكن أن يثار ضد تلك الآراء من الاعتراضات، والردود التي يمكن إيرادها على المعترض. فما رأيك يا سيدي؟ وافق (ابن سينا) على المقترح، وراح يورد لهم قبل عرض أفكاره مقدمات، منها أنه لا يجوز الاحتجاج بالنقل لدحض الحجج العقلية لأن العقل مقدمٌ بالضرورة على النقل، باعتبار كونه الأعم في النوع الإنساني وكونه مناط التكليف وشرطه الأول... احتارت (روان) من هذا الكلام لكنها بقيت ساكنةً، وأضاف (ابن سينا) ما فحواه أن النصوص النقلية وردت في الشرائع لخطاب العوام والجمهور، لا الخواص والعلماء، فأوجبت الضرورة ضرب الأمثال وإيراد التشبيهات لتقريب المعنى إلى الأذهان (زيدان/2018، 102 ـ 103).

هنا مثلاً يقف عند مسألة الشريعة الاسلامية وبواطن الأحكام التي يجب على الفقهاء وعلماء الدين الاجتهاد فيه. فالزمن كان كفيلاً بجعلنا نسلم أن النص القرآني لابد لتشريعه وتبيان بواطن الأمور والأحكام فيه إلى الاجتهاد، الاجتهاد يقع في مراحل وبدأ منذ عهد النبي (ص)، لينظر العقل في باطن المعتقدات والأحكام الأمر الذي سّلّم به (ابن سينا) وحاول أن يُنَظِرَه. ولكن هذا لا يمنع من أن الاجتهاد عملية مفتوحة إلى يومنا هذا.

والتعريف الاصطلاحي للاجتهاد: (بذل المجهود في العلم بأحكام الشرع.) (الفوزان/ 1412، 6) أو (استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي)، والمراد بـ (استفراغ الوسع)، أن يبذل الفقيه الوسع في طلب الحكم، بحيث يحس من نفسه بالعجز عن مزيد طلب، (لتحصيل ظن)، إنما هو لبيان أن المجتهد فيه إنما هو الظنيات، أما القطعيات فلا اجتهاد فيها، ويدخل في الظني ما كان مستفادا من دليل ظني الثبوت، أو ظني الدلالة، أو ظني الثبوت والدلالة معا. وقوله: (بحكم شرعي)، ليخرج غيره من الحسيات والعقليات، لأن الكلام هنا إنما هوعن الاجتهاد في الشرعيات. (الشرفي/1418، 43).

وعن الظاهري والباطني، لدينا نماذج من طروحات (ابن سينا): ((ولا يعقل الأخذ بظاهر النصوص المخبرة عن التنغم البدني في الآخرة، فهذه صورٌ تشبيهية لتفهيم العوام، ومجاز لتقريب المعنى إلى عقول غير المتعلمين. ويبقى من قبل ذلك ومن بعده عدة حقائق، منها اللذات العقلية أعلى وأرقى من الجسمانية. وأن مبدع الكل سبحانه، لا يجوز في حقه التشفي من المخطئين، بالامعان في تعذيبهم جسدياً. فهذا محال على البارئ، ولا يستقيم مع اعتقاد الخيرية فيه، وهو تعالى الخير المحض. والنيل فالحشر لا يكون لأجسام وإنما للنفوس.)) (زيدان/ 2018، 104).

إنَّ هذا الطرح معقد جداً لأنه لايزال فيه جدال واسع ما بين علماء الدين والشريعة، فمثلاً أقرب جماعة إرهابية سياسية تحت اسم (داعش) كانوا يقتلون البشر ويفدون بأرواحهم ويقولون إنّ الحوريات في انتظارنا فهم أو أية جماعية إرهابية أخرى تحت مسمى الدين أينما يكونون فدائيون بأسم ملذات الآخرة وما ينتظر أجسادهم الميتة بعد الموت.

ولذلك قد عمّدَّ الراوي الذي هو الواسطة بين العالم الممثَّل والقارئ وبين القارئ والمؤلف الواقعي. وهو العون السردي الذي يعهد إليه المؤلف الواقعي سرد الحكاية أساساً. (القاضي/ 2010، 195) إلى الاستشهاد بهذه النماذج من الأفكار والطروحات الصوفية الفلسفية ل(ابن سينا) لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقعنا الحالي وجزء لا يتجزأ منه. وهذا ما سمي الجهات التقويمية، (وهي تلك المتعلقة بما يبديه المتكلم في كلامه من أحكام وتقويمات للمضامين القضوية). (القاضي/ 2020، 196)

ومن ناحية التبئير فالسرد هنا لا يكون على سبيل إثبات ما حدث كما هو..... ولكن هذا النقاش الوجودي عن الالهيات والنفس، نقاش دائمي ومستمر لعدم وجود دلائل واضحة وإثباتات عليه بل جميعها تقريباً اجتهادات من الفقهاء أوالجماعات الصوفية، و((ابن سينا) بين فلاسفة العرب الذي يجمع بفلسفته مع التصوف أفكاراً مشتركة، كحديثه عن الوجود والالهيات والنفس والعشق والشوق والمعرفة وأمور أخرى تخص أهل الطريق) (الجروستاني/ 2009، 35).

ب: الطرح السياسي:

ماذا نقصد بالسياسة؟ وأساس الدولة يتغير بتغير الدستور عينه؟ (أرسطو/ 2009، 189) والرجل السياسي والمقنن إنما يقصدان في أعمالها الدولة ليس غيرها، والحكومة ليست إلا نظاماً ما مفروضاً على جميع أعضاء الدولة. وأعضاء الدولة يشبهون الملاحين تماماً. فعلى رغم اختلاف وظائفهم فسلامة الجماعة هي عملهم المشترك. (أرسطو/ 2009، 189 ـ 195). القصد أن السياسة منذ كانت وحتى يومنا هذا متعلقة بالتنظيم أي عملية عقلية متراتبة، أرسطو وأفلاطون سعى إلى تبيان دولة نموذجية وسياسة متكاملة تشمل جميع الأمور. لكنها أسّسا بناء التعريفات، فهنا مثلاً تحدث أرسطو عن الدساتير وقال إن أساس الدولة يتغير بتغير الدستور عينه، فهذا يعني أن العملية السياسية عملية متغيرة ولا ثبات لها، والدساتير عبارة عن مجموعة من الأنظمة والقرارات وتوزيع المهامات والموارد.

فإذاً نستطيع القول إن السياسة تتعلق بكيفية إدارة حياة الجماعة وتحقيق مصالحهم المشتركة، وكيفية توزيع السلطة والموارد من أهم أركان السياسة، أي الاقتصاد والسلطة.

لقد دخل (ابن سينا) عالم السياسة أو بالأحرى عالم السلطة عن طريق مهنة الطب والتفكير النقدي، لأن تفكيره كان مختلفا عن تفكير من كانوا مثله في زمانه ولا تزال أفكار (ابن سينا) وطروحاته توصف بالتميّز والإدراك العمق بالمحسوسات والمعنويات. (S.groff/2007،14-19)

وفي الرواية نجد دمج بعض من الطروحاته السياسية وربطها بالعالم الآني مثلاً:

((أخبرني جدي الذي حضر الواقعة أيام طفولته، أن حاكم (قم) أخرج من معبد النار هذا أقدم نسخة من كتابهم المقدس (الأبستاق) وأحرقها، فظلت النار تأكل فيها ثلاثة أيام، لأنها كانت مدونة على عشرة آلاف رقّ من الجلد. ولماذا تلك الشنائع؟ نكاية في المجوس، ونصرة لدين الله. الله لم يأمر بنهب معابد غير المسلمين، وتهديمها، وإحراق كتب الأولين)). (زيدان/ 2018، 61).

هكذا تم حرق جزء من التراث الشرقي، وسرقوا ونهبوا ما استطاعوا وأبقوا على شناعاتهم وتراث جهلهم، ونرى في الغرب كيف احتفظوا بتراثهم حتى عندما كانوا سارقين وآكلي اللحوم وبنوا للفيكينك المتاحف، وأخذوا واحتفظوا بتراث الشرقي الذي نهبوه في متاحفهم.

من هنا نرى أنه من المهم جداً إزاء الهيمنة الغربية بما تحمله من مخاطر التغريب ومسخ التمييز القومي وسحق الهوية الحضارية- أن نبعث صفحات تراثنا العربي لكي نبرز تلك الجذور العميقة لقضايانا المعاصرة، وكيف طَرَقها الأقدمون من أعلامنا وبأي عمق تناولوها. (سيد هاشم/ 2016، 2).

و(ابن سينا) وأفكاره وطروحاته خير مثال لبعثه وفهمه من جديد ووضعه في ميزان العلوم الجديدة، نرى بأن ما اهتم به يدرس من قبل الغربيين ويعنى اهتماماً واضحاً به. (Leaman/ 2001, 310-311)

فنراه ـ من باب عنايته بالخيال ـ **((شرد بخواطره، فرأى لوهلةٍ أن دولة الاسلام قد صارت شذرات ممزقة. فالخلافة في بغداد أمست منذ فترة طويلة اسما بلا رسم، شكلاً لا دلالة له، الخلفاء يتنغمون بالملذات في قصورهم، وينتظرون النيء والهدايا من أمراء استقلوا بالبلاد شرقاً وغرباً...)) (زيدان/ 2018، 67).**

وفي يومنا هذا، نرى مسؤولي الدول العربية يعيشون في واد ومواطنهم في وادٍ آخر وحين يُطرد الرؤساء والمسؤولون يلجؤون إلى الدول الغربية التي أيّدتهم في طغيانهم وقمع شعوبهم.

ونجد طرحاً لهذه الفكرة أي فكرة الإمَّعيّة، وهو الذي يقول لكل شخص: أنا معك، على لسان آمر السجن الذي يمثل شخصية رئيسة ومحركة العقدة والسير بالأحداث، والراوي طرح هذه الفكرة الذي سادت في أيامنا وانتشرت بكثرة عن قصد ولا ننسى بأن (طرح التأريخ من جهة يعني طرح جملة الأحداث والوقائع التي جرت في أزمنة ماضية، ومن جهة أخرى هو ذلك الخطاب الذي يصوغه شخصٌ معين في أحداثيات زمانية ومكانية محددة ليصف به ما وقع من أحداث كبرى في أزمنة الخوالي) (القاضي/ 2008، 86).

((قنعت بانزوائي هنا وعملي آمراً لهذه القلعة التي هي في الواقع سجنٌ ومعتقل تابع لإمارة همذان، وبعيدة عنها وعن صخب السياسة. وصرت أخدم أي حاكم يملك همذان وما حولها بلا ولاءٍ خاص أو تمييز بين حاكم وآخر. فإذا جاء ابن الكاكوية وملك النواحي، سأكون في خدمته. وحتى لوجاء محمود الغزنوي أوغيره من الأمراء المتحاربين فيما بينهم كالكلاب المتهارشة، سأكون بالتبعية في خدمته)). (زيدان/ 2018، 67)

هنا شرح وتفصيل لوجهة النظر التي تقول: الولاء للذي بيده المال والسلطة، وهذا مبدأ سياسي يُسمى اللامبدأ، هذه فكره أخلاقية من جهة وقانونية جديدة من جهة أخرى. إذ توجد أشخاص ـ سابقاً وفي الوقت الحاضر ـ يعتلون أخلاقيات عالية، يؤمنون بمبدأ موحد في الحياة، يمكن أن يطوروه لكنهم لا يغيرونه، ولا يتلاعبون على الحبال. ولا يعبدون الله على حرف، فهذه هي الجهة الأخلاقية للفكرة. ومن الجهة الثانية تعدّ الفكرة قانونيا وجديداً في البلدان التي يسود فيها القانون، فالدستور أو السياسة مهما تغير فمن غير الضروري أن يتغير رجال الدولة أو الموظفون الاعتياديون أو آمرو السجون، لأن جميع هؤلاء يتحركون ويؤدون واجباتهم حسب قانون موحد تحت أيّ سيادة، ولو غيرت سياسة ما القوانين، فهذا يشمل الجميع.

هذا المبدأ الذي طرحه الراوي في الرواية، هو مبدأ مُباح في وقتنا الحالي وتحت مسمى القانون وهو جائز وقانوني للموظف الاعتيادي، ولكن فيما يخص الشخص الذي يمثل حزباً معيناً، ومتحدثا باسم ذاك الحزب فهذا يدلُ على التردد في الرأي والمبدأ.

في هذا المقطع نرى أن اللغة وطريقة استعمالها والتعبير بها قد ساعدت على أن يكون هذا المقطع الحواري ضمنياً ومتيناً داخل الأحداث ومتطابقاً مع أفكار الشخصية ولغتها، والشخص هو حاكم القلعة الذي يحكم ويأمر وينهى، وتحت قيادته سجناء وعسكر، وهو شخص ضخم الهيكل وقد قام بعملية القتل في السابق، أو عندما كان شاباً. وقد رأى كثيراً من الويلات والمصائب ما جعله شخصاً ملوناً لكي ينجو وينقذ حياته وعائلته.

ولكن الفكرة توضح في ختام الرواية وتوضح عواقب العملية السياسية على الفلاسفة والعلماء الذين ينجرون دون وعي أو إدراك ودون هدف سابق في شِباك الوزارات والسياسات. وكذلك عواقبها على الموظفين في تلك السياسات، العواقب واضحة: دس الدسائس والمكايدات والقتل وما إلى ذلك. بقي (ابن سينا) حبيساً في القلعة أربعة أشهر، وكان قد صنف بالقلعة كتاب (الهدايات) و(رسالة حي بن يقضان)، وكتاب (القولنج). (سيد هاشم/ 2016، 4-9). في هذه النقطة بالذات يمثل الراوي البطل والمؤلف، لأن التداعيات هي نفسها. هنا نفهم أن معظم الحالات والأخطاء التأريخية لاتزال نفسها في الواقع الآني وبالتبعيات عينها (فالواقع الاجتماعي يتضمن نظاميات السلوك والتفسير وتحظى بفهم مشترك وهي تقليدية حتماً) (مارتن/ 1998، 91).

مشهد آخر حواري، يمثل لنا كيف أن العلماء استُخدِموا كواجهة سياسية لكي يجذبوا ويقنعوا العامة والخاصة من السلاطين الأخرى بما كان الأمراء يفعلون:

((اجتمع بالمجلس الأمير العلماء الكبار، الأربعون وجلسوا بحسب الترتيب المعتاد. وكان وجه أبي الريحان البيروني حائل اللون تصبغه الصُفرة، كأنه أُصيب فجأةً باليرقان، فزاد ذلك من حيرتهم. وبلغت الحيرة مداها، حين دخل الأمير متجهماً وفي يده ورقة مطوية ولم يلق عليهم سلامه المعتاد. نظر الأمير في الورقة المطوية، ودون أن يُطيل في التقديم للأمر أو التمهيد له، قال: ورد إليّ اليوم هذا الكتاب من السلطان محمود الغزنوي، يأمر فيه بترحيلكم فوراً إلى عاصمته (غزنة) من دون إبطاء أو تأخير أو تعلُّل بأي عذر، فهو يريد أن يتباهى بوجودكم في قصره)) (زيدان/ 2018، 161-162).

هذا الموضوع المطروح هنا عبارة عن لمحة سياسية مهمة في تأريخ الحقبة الإسلامية وما بعده من عصر السلاطين. وهذا الطرح مكمل أساسي في جريان أحداث الرواية، والمجريات الأخرى، وهذه الحلقة تربط بين السياسة والعلم والدين والاقتصاد.

فالعلماء استُخدموا كواجهة مُشرِفة في قصور الملوك والسلاطين مع أن معظم الأمور الدينية والتشريعية كان قد خرج عن مرسوم أميري حسب تشريع فلان العالم في التشريع أو علان العالم في الفلك، مثلاً مرسوم أميري حول موعد الحملة الفلانية إلى بلادٍ ما لأن العالم الفلكي تنبأ أن الوقت مناسب والنصر آتٍ، وكان ذلك يعد إهانة وارهاقاً للعلماء والفلاسفة والمفكرين بأن تتركّز عمليتهم العقلية وجُلّ اهتماماتهم على ما يُطلب منهم ولو قالوا شيئاً لا يتفق مع أهواء السلاطين يُنفون أو يُقتلون.

ومع ذلك، هذا التشجيع حتى لوكان ظاهرياً قد ولد منه علماء وأسماء كبيرة في عالم المنطق والفلسفة والفلك والطب. وهذا الربط الجذاب في الرواية بين العقاب والأجر والنفي للعلماء، قد أوجد مجموعة من المفكرين الذين باتوا فخراً للعالم الإسلامي ولا سيما في الحقبة المسماة الداكنة، التي حملت في طياتها أفكارهم التي كانت مولدةً للأمور العلمية والطبية وحتى التكنولوجية في زماننا الحالي. أبسط مثال على ذلك ((ابن سينا)، وعباس ابن فرناس، ومريم الأسطرلابية،...).

ج: الخيال في الرواية:

إنّ الرواية التاريخية تنشأ من نواقص التاريخ وعيوبه، وهذه الفكرة ربما نشأت من تفريق أرسطو الواضح بين التأريخ والقصة، لأن التاريخ من وجهة نظره تنقصه الحبكة التي تبدو فاعلة في القصة.

والخيال هو العنصر الذي يكمل هذا النقص ويؤدي دوراً مهماً في تمدد السرد وفي صياغة الأسئلة الراهنة والإجابة عليها ودمجها في بناء فني وتشكيل شخصيات متخيلة أحياناً أولم تشر إليها المدونات التاريخية في ذلك السياق. (ضرغام/ 2010، جريدة الحياة).

والخيال بدوره ينقسم على قسمين في الخضوع لمؤثرات الواقع أو الابتعاد قليلاً أو كثيراً عنه، ويظل واضحاً أن ما يلون به القاص تصوراته أو تطلعاته محسوب أيضاً على عالم الآخرين الغرباء أو المتخيلين، وبذلك يصون القاص، لدى المستمعين إليه، الصورة المستقرة في نفوسهم والمتوافقة مع أفكار عصرهم وتقاليد بلدهم وأعراضها (سركيس/ 1979، 123-124).

إنّ شقّيْ الخيال الأدبي، من ناحية علاقة المتخيل بالواقع أومن ناحية إمكان حدوث هذا المتخيل، شيء مجهد الكشف عنه أو البحث حوله. وهذا البحث إنما عرض لهذا الجهد، ومن المعقول للباحث أن يبحث حول ما إذا كان الخيال، متطابقا مع رسم الشخصية وأبعادها في إطار الرواية، أم لا! وهل يوافق مع الأيدولوجيا المتبعة للشخصية أم لا يتوافق. وبإمكان الباحث الكشف عن نقاط القوة والضعف والتوافق أو عدمه للخيال المستجد في الرواية التأريخية.

وبما أننا بصدد الحديث عن شخصية فلسفية طبية منطقية دينية ومعروفة داخل العالم العربي وخارجه، فالبحث عن الخيال داخل الرواية يكون سهلاً وصعباً في آنٍ واحد. سهلاً لكثرة المعلومات حول حياة الشخصية. وصعبا لأن المعلومات الكثيرة تقريباً تدور حول إطار عام للشخصية وليس حول تفاصيلها الدقيقة.

هنا نبين بعضا من المقاطع في الرواية حيث كان الراوي موفقاً في استعماله العملية الخيالية، ونعرض مواقف وحوارات مستخدما فيها الخيال ولم يكن الراوي على الصواب برأينا، ودلائل حول عدم توفيق الراوي بين أجزاء الخيال المبعثرة هنا وهناك.

حوار بين (ابن سينا) وجاريته:

((ماذا تريد يا سيدي..

لماذا صرت فجأةً أجمل!

لا أدري. سيدتي بقزوين، كانت تقول إن الأنثى حين تُحب تصبح أجمل.

هاه، قولها بليغ... وماذا تقولين أنتِ؟

أقول، يا سيدي، كيف تتمنى ما هو حاضر بين يديك؟!)) (زيدان/ 2018، 97).

إلى هنا في هذا الحوار الخارجي يكون التخيل بما كان قد جرى بين (ابن سينا) وجارية من جواريه ضمن النطاق المعقول والمنطقي يبدأ بسؤال يبدو بريئًا من الجارية لسيدها ابن سينا: "ماذا تريد يا سيدي..". هذا السؤال، في سياق العلاقة بين سيد وجارية، يحمل في طياته احتمالات تتجاوز مجرد الاستفسار عن رغبة عادية. إنه يفتح الباب أمام عالم من التوقعات والخدمات التي قد تشمل ما هو حميمي وجسدي بطبيعة العلاقة الهرمية بين السيد وجاريته. لكن التحول المباشر وغير المتوقع في حديث السيد يضيف طبقة أخرى من المعنى: "لماذا صرت فجأةً أجمل!". هذا التعليق ليس مجرد ملاحظة عابرة، بل هو إعلان عن انجذاب شخصي، نظرة تتجاوز حدود العلاقة الرسمية لتلامس منطقة الإعجاب الجسدي والجمالي. هذه البداية تمهد المسرح لتفاعل أكثر عمقًا وحميمية. يأتي ردها محملاً بإشارة ثقافية وشخصية عميقة: "لا أدري. سيدتي بقزوين، كانت تقول إن الأنثى حين تُحب تصبح أجمل". هنا، تستدعي الجارية حكمة منقولة عن سيدتها السابقة، تربط فيها بين الحب وازدياد جمال الأنثى. هذا الربط ليس مجرد قول عابر، بل هو تلميح ذكي ومحتمل. فبذكرها للحب كسبب للجمال، قد تكون الجارية تلمح بشكل غير مباشر إلى مشاعرها هي، أو على الأقل تفتح الباب أمام هذا التفسير. إنها لا تنسب الجمال إلى سبب خارجي، بل إلى حالة داخلية مرتبطة بالعاطفة الأعمق: الحب. رد ابن سينا على هذا القول المنقول يكشف عن دهشته واهتمامه: "هاه، قولها بليغ...". ولكن سؤاله المباشر للجارية "وماذا تقولين أنتِ؟" ينقل الحوار من العام إلى الخاص، ومن المنقول إلى الشخصي، هذا السؤال يحمل في طياته دعوة للكشف عن الذات، ويضع الجارية في موقف يتطلب منها إما تأكيد المقولة وتطبيقها على نفسها بشكل ضمني. والتعبير عن ذات الجارية وما يدور بخواجها يزيد من حدة التوتر الحميمي في الحوار. إنه ليس مجرد استفسار فكري، بل هو استكشاف لمشاعرها المحتملة تجاهه، وهو ما يضفي على المشهد بعدًا إيروتيكيًا واضحًا من خلال التركيز على الذات الأنثوية ومشاعرها.

فقد **((رأى (ابن سينا) أنه قد صار يهوى وتتهاوى حصونه غير الحصينة، فيميل ويكاد ينهل، فتمهّل. لم يعجبه احساسه بأن أمره صار فُرطاً، وحاله يتشظى بين التشهي والتوقي. شرد لحظة ثم قام من جوارها..... ما هذه السفسطة؟ وما الذي يمنعني الآن عن* *روان** *وهي ملك يميني ومالكة زمام اشتهائي، وراغبةٌ منيّ؟ إشباع مشتهاي منها، لن يجرفني مجدداً إلى منحدر شلالات العشقية الهادرة. الحرمان هوالذي يقدح شرر العشق، ويشعل بالتمني أوار ناره فتلتهب، ....)) (زيدان/ 2018، 97)**

يكشف التحليل الدقيق للحوار بين ابن سينا وجاريته عن طبقات متعددة من الإيحاءات الإيروتيكية المبطنة. بدءًا من التعليق على الجمال، مرورًا بالتلميح إلى الحب، ووصولاً إلى الذروة في عبارة "حاضر بين يديك"، يتصاعد التوتر الحميمي بشكل تدريجي ومدروس. اللغة المستخدمة، رغم بساطتها الظاهرية، مشحونة بالمعاني المزدوجة والاستعارات الحسية التي تتجاوز ظاهر الكلمات. كما أن ديناميات القوة بين السيد والجارية لا تلغي هذا البعد، بل تضيف إليه تعقيدًا وعمقًا، حيث تصبح المبادرات اللفظية للجارية أكثر جرأة، واستجابات السيد أكثر دلالة. يقدم هذا الحوار القصير نموذجًا مكثفًا لكيفية توظيف اللغة في سياق تاريخي واجتماعي معين لخلق صور إيروتيكية تعتمد على الإيحاء والتلميح بدلاً من التصريح المباشر، وهذا الهيجان أدى إلى حوار داخلي طويل حول حالة (ابن سينا) الغير مستقرة جسدياً وهذا الحوار الداخلي المتخيل من قبل الراوي الكلي العلم، قد يبدوا شيّقاً للمتلقي ضمن إطار السرد، ولكنه من جانب آخر يبدوا غير موفقاً للاهتمام بالشهوات الجسدية لشخص مثل شيخ الريس!

لم يفارق (ابن سينا) منزله لمدة ثلاثة أيام، لم يخرج خلالها من غرفته إلا نادراً. وكذلك روان.عرف معنى النوال الذي لا يعقبه ندمٌ أو ألم، و أدرك معنى السعادة التامة، واكتشف فتونه التي كانت كامنة تتوق إلى الاستعلان.. روان... بحارٌ من تحتها بحار، وسماواتٌ فوق سماوات حسنها بعضه ظاهرٌ، ومعظمه مخبوءٌ خلف الأردية، والحياء. فإذا تجردت، تجرأت، سلبت العقل بفرط الليونة والنعومة والبهاء... ما عاد (ابن سينا) وهو مفتون، يدري إن كان ينهل من نهرها أم أنه ذاب في مياهه، فكلما ارتوى من رحيق حضورها الآسر في حضنه، وجد نفسه عطشاناً ومشتاقاً إلى النبع. والعجيب من أمرها معه، أنها كانت تفتح مغاليقه بغير مفاتيح.)) (زيدان/ 2018، 98- 99).

يصور النص انتقال ابن سينا من حالة عزلة شبه تامة ("لم يفارق منزله") إلى تجربة انغماس كلي تقود إلى "السعادة التامة" واكتشاف "فتونة التي كانت كامنة". يشير هذا إلى عملية تحول نفسي عميقة، حيث تعمل العلاقة كمحفز لإطلاق طاقات ورغبات مكبوتة، مما يمثل رحلة نحو اكتمال الذات عبر الآخر.

كما يطرح هذا المقطع السردي مفهوم "النوال الذي لا يعقبه ندمٌ أو ألم" و"السعادة التامة"، وهي مفاهيم تتحدى التصورات الفلسفية التقليدية، خاصة لدى مفكر عقلاني

كابن سينا. هل تمثل هذه السعادة تجاوزًا للثنائيات الأخلاقية المعتادة (لذة/ألم، ندم/رضا) أم هي حالة من الانصهار الوجودي المؤقت الذي يلغي الوعي النقدي؟ يفتح النص تساؤلات حول طبيعة السعادة القصوى وإمكانية تحققها خارج الأطر العقلانية. ومن الناحية البلاغية هناك صور بلاغية مركبة لوصف روان ("بحارٌ من تحتها بحار، وسماواتٌ فوق سماوات")، مما يمنحها عمقًا رمزيًا يتجاوز الجسد ليشمل اللغز واللانهائية. استعارة "النهر" و"النبع" تصورها كمصدر للحياة والرواء الروحي والجسدي. كما أن التضاد بين الحياء الظاهر ("مخبوءٌ خلف الأردية، والحياء") والقوة الكامنة عند التجرد ("سلبت العقل بفرط الليونة والنعومة والبهاء") يعزز فكرة العمق الخفي والجاذبية المتعددة الأوجه كما تتجلى مفارقة الرغبة بوضوح في عبارة "كلما ارتوى... وجد نفسه عطشاناً". هذه الصورة تعكس طبيعة الشوق الإنساني العميق الذي لا يرتوي تمامًا، وتلامس مفاهيم صوفية ورومانسية حول الرغبة كمحرك دائم نحو المطلق أو الجوهر، حيث يصبح الارتواء نفسه حافزًا لمزيد من العطش. باختصار يمكن القول ان هذا المشهد يصور العلاقة ليس كحدث عابر، بل كتجربة كاشفة تعيد تشكيل فهم الذات ومعنى الوجود من خلال الانصهار في الآخر.

هذا النوع من المشهد الحميمي قد عُرض بصفحات وغيرها صفحات أُخرى من مشاهد إيروتيكية بين (ابن سينا) وشخصيات نسائية، سواء كنّ جواري أو نساء حرة، مشاهد شبه عارية. مشاهد يثير عاطفة المتلقي ومشاعره ويهيم القارئ في تخيل المشاهد الصورية المثيرة. فمن التوازن في الرواية أن يُعنى الراوي بجميع أبعاد الشخصية ومن بينها البعد العاطفي، ومن المهم العناية بها لجذب المتلقي لكي يتعرف بعمق على الشخصية المتحدّث عنها ولكن يجب مراعاة العرف الاجتماعي وفي حالة الحديث عن الشخصية التأريخية فيجب عدم التشويه، للفكر السائد حول الشخصية المذكورة، ولا سيما ان كان شخصاً مثل (ابن سينا).

وهنا يكون الحديث عن ((النسق الثلاثي في الحكايات ونعتبره جوهراً دلالياً قد يتشكل في اطر سردية كثيرة. أي أنه بنية ثابتة يتناولها العقل الانساني في ثقافات متغايرة أو أعمال فنية متغايرة وينسج حولها اطراً سردية أو حوارية تعطي للجوهر الدلالي أبعاداً زمنية عن طريق الحدث القصصي فتجعله أكثر قدرة على الانخلال في الذات أو تجسيد اكتناه الانسان للعالم، باعتبار هذا الجوهر الآن فعلاً زمنياً حدث في سياق زماني ومكاني محدد، أي أنه يصبح تجربة فعلية ذات أبعاد واقعية وبهذا تكتسب الحكاية بنية جدلية تنشأ من علاقات التضاد بين :اللازمني ⟵ الزمني ؛ اللاشخصي ⟶ ⟵ الشخصي : الاختلاقي ⟵ الواقعي.)) (أبو الديب/1984، 124)

القصد هنا حول بناء النسق بحيث تنبع من تمايز ظواهر معينة في جسد النص ثم تكرارها عدد من المرات ثم انخلالها ثم اختفائها، بهذه الصفة يكتسب النص طبيعة جدلية، وهذا هو المطلوب لأي نص سردي. على سبيل المثال عندما تحدث الراوي عن الحالة العاطفية ل (ابن سينا) سلّط الضوء على ثلاث شخصيات أو ثلاث حكايات عاطفية. أو تكرّر النسق ثلاث مرات، وهو ما يمنح هذه السرديات قدرتها على "الانخلال في الذات" وتجسيد "اكتناه الإنسان للعالم"، محولةً الجوهر الدلالي الكامن إلى تجربة إنسانية حية ومؤثرة والحكايات تتمثل في:

الأولى: حكاية عاطفية من مرحلة الشباب في حياة الشخصية، متمثلة في شخصية (سندس)، كان حُباً شهوانياً غير مشروع، وكانت الشخصية في علاقة جسدية محرمة من غير زواج.

الثانية: عشق في مرحلة منتصف العمر، هذا العشق متمثل في شخصية (روان) وهي جاريته وحبيبته وملتقاه الشهواني والجسدي. بحيث يتحول العشق إلى جوهر "السعادة التامة" و"اكتشاف الفتون الكامنة" من حالة مجردة إلى تجربة حسية وعاطفية مكثفة ("ينهل من نهرها"، "يذوب في مياهها")، مما يخلق توترًا جدليًا حادًا بين الارتواء والعطش، وبين الوعي العقلاني والانفتاح غير العقلاني ("تفتح مغاليقه بغير مفاتيح"). إن هذا التوتر الناشئ عن علاقات التضاد بين اللازمني/الزمني، اللاشخصي/الشخصي، والاختلاقي/الواقعي ما يخلق نوعاً من الشوق والانتظار إلى النسق التالي في العملية السردية، وهذا النوع من خلق الأنساق في العملية السردية ما بعد الحداثوية يعتبر ذكاءً و دهاءً من قبل المؤلف

الثالثة: المرحلة الأخيرة من حياته وهو في المعتقل، المتمثلة في (ماهتاب) وهي طالبة علم وامرأة حُرة حدثت بينهما حالة عاطفية وجسدية أيضاً. ولكن هذه المرة حدث اختلاف في العلاقة وصل الى درجة الكمال فيها إن صح التعبير. لأن المرحلة الثالثة يلاحظُ فيها التغيير اللازم في هذا النوع من السرد.

في هذه المشاهد الإيروتيكية نحلل بعضا من الجُمل، مثلاً:

جملة **((جلس ابن سينا على طرف سريره))** صورة واضحة لشخص جالس وفي حالة عدم الاستقرار، لأن على طرف سريره يعني أنه في حركة. **((دعاها بصوت رقيق قائلاً))** بدا الصوت يصبح رقيقاً، أي ليس فيها الخشونة الرجالية، هذه صورة. **((تعالي إلي يا روان))** صورة أخرى فيها طلب وليس أمرا. **((فأجابته بصوت أرق))** أي الجارية موافقة ومقبلة على ما يمليه عليها. و**((لم يفارق (ابن سينا) منزله لمدة ثلاثة أيام)).** هذه الصورة توضيحية لفعل ما بعد الإقبال على الاستمتاع الجسدي ما بين كلا الطرفين.

إنّ كل كلمة من كلمات هذه المشاهد عبارة عن صورة ذهنية أو مشهد جماع بين عاشقين بصورة مليئة بالعاطفة واللذة، وذلك تمثيل لظواهر الأشياء أي اللذة الجسدية والتي هي بالأساس عكس ما يؤمن به الشخصية الرئيس في حياتها التأريخية وفي الرواية أيضاً كما يرويها لنا الراوي، وكما يلقيه هو في محاضراته. فهو يؤمن بأن اللذة الحقيقية والعذاب الحقيقي هما للنفس وليس للجسد كما يتخيله العوام. وبهذا المنطق الذي تحدث عنه (ابن سينا) وآمن به وحارب لأجله وكاد أن يقتل بسببه لا يمكن أن يكون هذا الرجل شهوانياً جسدياً كما في متخيلة الراوي، الذي صوره في مراحل عمرية مختلفة.

إذاً، لا نجانب الحقيقة إنْ قلنا إن الراوي لَفق الأحداث والوقائع وصوّر الشخصيات بصورة بعيدة عن الصورة الحقيقية لها، والدافع لهذه الفِرية وهذا الافتراء يعود إلى غاية في نفسه قضاها، بغية تشويق لروايته أو تشويش للشخصية الرئيسة في الرواية، وتدليس للحقائق التأريخية. وبرأينا لا يندرج هذا الفعل تحت مسمى (الخيال)، إذ على الراوي أن يحافظ على الصورة المستقرة المنقوشة في نفوس القراء عن الشخصية التأريخية، وألا يطلق العنان لنفسه بتقديم صورة مغايرة متناقضة تماماً عما آلفه القراء عن تلك الشخصية، باسم الخيال. لذلك فإن الراوي هنا غير موفق في تخيّلاته.

ما يؤكد قولنا، من تناقض وقع فيه الراوي، هذا الحوار الذي دار بين (ابن سينا) وبين طلابه. حيث كان حوارا نقيضا لما صوّره خيال الراوي في المشهد السابق، يقول الراوي أن (ابن سينا):

((نفى القول بتناسخ الأرواح والاعتقاد بالميلاد المتجدد عقب الممات، وأورد أدلة عديدة على بطلان القول بالتناسخ، ثم عرض أمامهم رأيه في استحالة حدوث البعث الجسماني، انطلاقاً من المعقول الذي يؤكد المنقول ويتوافق معه، يؤكد أن النفس الإنسانية هي الأهم والأدوم وهي الجوهر الذي لا يعتريه التغيير ولا النقصان)) (زيدان/ 2018، 103).

هذا فكره وإيمانه عن الجسد والنفس وهو فكر مطروح في الرواية وفي كتابه (المبدأ والمعاد)، ولأجل ذلك قد حدث حوار عنها في المساجد بين صفوف علماء الدين وغيرهم.

وله رأي آخر مكمل لهذا الرأي، يقول:

(لا يعقل الأخذ بظاهر النصوص المخبرة عن التنعم البدني في الآخرة، فهذه صورٌ تشبيهية لتفهيم العوام، ومجاز لتقريب المعنى إلى عقول غير المتعلمين. ويبقى من قبل ذلك ومن بعده عدة حقائق، **منها أن اللذات العقلية أعلى وأرقى من الجسمانية)** (زيدان/ 2018، 104).

هنا الكلام نصفه عن الآخرة والحوريات والحالات الجسدية التي يتمتع بها الرجل عندما يدخل الجنةَ. وباقي الكلام بشكل عام عن اللذة العقلية والجسدية، ف(ابن سينا) يؤمن بأن اللذات العقلية والاقتراب من الله عز وجل والتفكير بماهيته أعلى وأرقى من اللذة الجسدية بين الرجل والمرأة سواء هنا أوهناك.

ففي هذه النقطة بالذات جعل الراوي من (ابن سينا) شخصاً مزدوجاً. يقول رأيا ويسعى إلى عكسه! فكان بإمكان الراوي أن يعرض حالة من العشق الإلهي عندما جاء إلى عرض صور من الخيال العاطفي أو مشاهد بينه وبين حواراته مع الله عز وجل.

الخاتمة

تُمثّل رواية "فردقان: اعتقال الشيخ الرئيس" ليوسف زيدان نقطة تقاطع مُركّبة ومعقدة بين حقل التأريخ وفضاء التخييل الروائي، مُجسّدةً بذلك إحدى الإشكاليات المركزية في الرواية التاريخية المعاصرة. إنّ اختيار فترة اعتقال (ابن سينا) كمسرح للأحداث لا يُعدّ مجرد استدعاء لفترة تاريخية، بل هو بمثابة مختبر سردي يُمكّن زيدان من إعادة فحص وتشكيل شخصية (ابن سينا)، ليس فقط بوصفه أيقونة فكرية وعلمية، بل كإنسان تتجاذبه الطموحات والمخاوف والرغبات. يتجاوز العمل مجرد سرد الوقائع الموثقة ليخوض في عملية "تأويل تاريخي" نشط، حيث يُستخدم الخيال كأداة معرفية لا لسدّ الفجوات فحسب، بل لاستنطاق المسكوت عنه في المصادر الرسمية، وتقديم قراءة بديلة أو مكملة للتاريخ.

يبرز التوظيف الاستراتيجي للشخصيات النسائية المتخيلة (كهتاب وسندس) كآلية مركزية في هذه العملية التأويلية. فهذه الشخصيات لا تعمل فقط كمحفزات درامية أو كأدوات لتفسير جوانب غامضة في سيرة (ابن سينا) (مثل كتابة "حي بن يقظان" أو "الإثم والبر"، أو تفسير علاقاته النسائية)، بل تُصبح عدسات نقدية تُسلط الضوء على محدودية السرديات التاريخية التقليدية التي غالباً ما تُغيّب الصوت النسائي وتُركّز على الفضاء العام الذكوري. من خلالها، يُعيد زيدان بناء "لوحة منطقية" كما يصفها، لكنها منطقية من منظور روائي يسعى للإحاطة النفسية والعاطفية بالشخصية، وهو ما يتجاوز غالباً اهتمامات المؤرخ التقليدي. هذا المسعى لأنسنة الرمز التاريخي وتقريبه من فهم القارئ المعاصر هو أحد أهم رهانات الرواية. ولكن الباحث يرى بأنه رهان خاسر بالنسبة لاسم شخص مثل (ابن سينا).

إنّ البنية السردية الهجينة، التي تمزج بين صوت الراوي العليم ذي النبرة المعرفية الواثقة، والحوارات الكاشفة، والاسترجاعات التي تستدعي الماضي بتفاصيله، تعكس هذا التوتر المنهجي بين الالتزام بالوثيقة والرغبة في التحرر الإبداعي. ومع ذلك، فإن هذا التوتر ذاته هو ما يفتح باب النقد؛ فالإتكاء الواضح على المادة التاريخية المعروفة، والاستخدام الوظيفي المباشر للخيال لخدمة أغراض تفسيرية محددة، قد يُضعف، في نظر بعض النقاد، من الاستقلالية الفنية للعالم الروائي. ويجعله أقرب إلى "السيرة الروائية" أو "الرواية التعليمية" منه إلى عمل تخييلي متكامل ذي بنية درامية عضوية وشخصيات مكتملة النمو بمعزل عن مرجعيتها التاريخية. قد يُنظر إلى هيمنة صوت المؤلف ورؤيته التوجيهية على أنها تحدّ من تعدد الأصوات وتُقلّص المسافة الجمالية المطلوبة للتلقي النقدي.

في المحصلة، تضعنا "فردقان" أمام تجربة روائية تطمح إلى ما هو أبعد من مجرد الإمتاع السردي أو الإحياء التاريخي. إنها محاولة واعية لاستخدام الأدب كأداة لإعادة التفاوض مع الماضي وتراثه، وتقديم قراءة ثقافية تهدف إلى "إصلاح ما أفسدته السياسة"، حسب تعبير زيدان. وبذلك، تتجاوز الرواية حدود النوع الأدبي لتصبح مشروعاً ثقافياً يطرح أسئلة جوهرية حول علاقتنا بالتاريخ، وكيفية تمثيله، ودور الخيال في فهم الذات والآخر عبر الزمن. إن نجاح الرواية أو إخفاقها في تحقيق التوازن الدقيق بين متطلبات الدقة التاريخية وضرورات الإبداع الفني يظل موضع نقاش.

بعد ما تم تداوله من الجانب النظري والجانب التطبيقي للرواية التأريخية وعلاقتها بالخيال نرى بأن المؤلف قد غدى حراً من تشاكل الوثيقة والخيال ولكن يضل الحرية مرتبطة ببعض الأسلاك الاجتماعية والعرفية لابد لنا من التقيد بتلك الاسلاك والخيوط.

قائمة المصادر

اللغة العربية

أبو الديب، كمال، 1984، جدلية الخفاء والتجلي، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت.

بن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله .1363، المبدأ والمعاد، مؤسسة مطالعات اسلامي، طهران.

سركيس، احسان، 1979. الثنائية في ألف ليلة وليلة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

طاليس، أرسطو، 2009. السياسة، ت: أحمد لطفي السيد، الجمل، بيروت.

لوكاش، جورج، 1986. الرواية التأريخية، ت: صالح جواد الكاظم، دار الشؤن الثقافية، الطبعة الثانية، بغداد.

سيد هاشم، رضا، 2016. (ابن سينا) ومنهجه في التربية والأخلاق، كلية دار العلوم جامعة القاهرة، القاهرة.

بن فوزان، صالح، 1412. الاجتهاد، دار المسلم، الرياض.

الشرفي، عبد المجيد السوسه، 1418. الاجتهاد الجماعي في التشريع الاسلامي.

مرتاض، عبد الملك، 1998. في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت.

الجروستاني، عبد الوهاب عبد الله ،2009. شعر التصوف بين الأدبين العربي والكردي (دراسة مقارنة)، مديرية الطباعة والنشر وزارة الثقافة، السليمانية.

القاضي، محمد، 2008. الرواية والتأريخ، دار المعرفة للنشر، تونس.

القاضي، محمد، 2010. معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس.

زيدان، يوسف، فردقان: (اعتقال الشيخ الرئيس). 2018، دار الشروق، القاهرة.

المصادر باللغة الإنكليزية:

Oliver Leaman, 2001, Encyclopaedia of Asian Philosophy, Routledge, London.

Peter Groff, 2007, Islamic Philosophy A-Z, Edinburgh University Press, Edinburgh.

الدوريات:

ضرغام، عادل، الرواية وحوار التأريخ،16-2-2010، جريدة الحياة، الثلاثاء. adeldrgham.blogspot.com/2010/02/blog-post.html